

مَجَلَّةُ عِلْمِ النَّفْسِ

مجلد ٦

يونيو — سبتمبر ١٩٥٠

عدد ١

سيكولوجية الغياب

بقلم

زكريا إبراهيم بقطر

قد تبدو كلمة « الغياب » absence في لغتنا العربية كلمة قلقة لا يرتاح إليها السمع ؛ ولكننا مع ذلك كثيراً ما نتحدث عن « غياب » الحبيب ، وكثيراً ما نسأل عن شخص ما من الأشخاص فيقال لنا إنه « غائب » اليوم ، وربما « يحضر » غداً ، كما أننا قد نمنع شخصاً من التحدث عن زميل لنا هو في عداد « الغائبين » لأن « الغيبة » خصلة مذمومة ؛ وربما نكون قد شاهدنا في تجربتنا العادية مريضاً في حالة « غيبوبة » ؛ ولعلنا أيضاً سمعنا عن العلوم « الغيبية » ، إن لم تكن قد سمعنا على الأقل عن أولئك الأدياء الذين يزعمون القدرة على التنبؤ « بالغيب » !

بيد أننا نبادر فنطمئن القارئ بأن موضوعنا لن يتطرق إلى كل هذه المعاني المشعبة ، لأن كل ما نريد أن نعرض له بالبحث في هذا المقال الموجز إنما هو الدور الذي يقوم به « الغياب » في صميم الحياة النفسية . وهنا نلاحظ أن العادة قد جرت باعتبار « الحضور » وجوداً ، و « الغياب » عدماً ، حتى أن كثيراً من الفلاسفة المعاصرين ليستعملون كلمة « الحضور » présence كمرادف لكلمة « الوجود »^(١) ولكننا نود أولاً وقبل كل شيء أن نقرر بأن « الغائب » l'absent (أعني ما ليس « حاضراً ») هو أبعد ما يكون في نظر الإنسان

(١) نستطيع أن نذكر من بين هؤلاء الفلاسفة لافل Lavelle مثلاً في كتابه "Présence Totale"

عن « اللاوجود » أو « العدم » . فما لم يعد موجوداً (أى الماضى) وما لم يوجد بعد (أى المستقبل) ليس فى نظرنا من قبيل « المعلوم » أو « غير الموجود » . ولو كان الوجود « الإنسانى » هو مجرد وجود فى « الحاضر » ، لما كان ثمة أى فارق بين الإنسان والحيوان . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن الإنسان هو الموجود الوحيد الذى ليس مستغرقاً فى الزمان والمكان إلى الحد الذى يجعل منه مجرد كائن يحيا فى الحاضر ، دون أن يستطيع التخلص من القيود التى تربطه بهذا الحاضر . — ولولا أن الوجود الإنسانى هو فى صميمه وجود حر ليس مستغرقاً فى العالم الخارجى ، لما كان فى وسعنا مطلقاً أن نتحدث عن أى « خلق » أو « إبداع » فى الحياة الإنسانية . . . وماذا عسى أن يكون « الخلق » إن لم يكن تصوراً للغائب ، بالاستناد إلى « الماضى » أو إلى « الحاضر » ؟ بل ماذا عسى أن يكون الوجود الإنسانى بأسره ، إن لم يكن اتجاها نحو المستقبل ، ونزوعاً نحو « الغيب » ، من أجل الخلق والإبداع ، وفى سبيل تحقيق القيم الإنسانية التى لا يستوعبها الحاضر ؟

ولكننا لا نريد أن نضع أمام القارئ عبارات فلسفية قد تكون أقرب إلى النتائج منها إلى المقدمات ، بل حسبنا أن نلتمس نقطة محسوسة نستطيع أن نجعل منها نقطة البدء فى هذا البحث الذى تريد نتائجه أن تجيء قبل مقدماته ! وهنا أستمح القارئ العذر فى أن ألتمس نقطة البدء فى تجربتي الخاصة فأقول : إننى موجود الآن فى باريس ، وقد خلفت أهلى وأقربائى فى مصر ، ومع ذلك فإن فى وسعى أن « أستحضر » صورهم أمامى ، وكثيراً ما أجد نفسى كأنى بإزاء هؤلاء الأشخاص « الغائبين » وجهاً لوجه ! ومعنى هذا أننى حينما أتمثلهم فإنما أرى شخصيات حقيقية ، لا مجرد أوهام فارغة أو صور ذهنية خاوية . وبعبارة أخرى أقول إن هؤلاء « الغائبين » هم فى نظرى « موجودات » êtres وليسوا مجرد « أفكار » . بل إننى لا أستطيع أن أتمثل هؤلاء الأقرباء ، دون أن أشعر فى الوقت نفسه بأن بيننا صلة هى صلة الحاضر بالحاضر ، لاصلة الغائب بالغائب . والواقع أننى حينما أفكر فى والدى مثلاً فإننى لا أفكر فيه باعتباره مجرد « هو » lui بل إنما أفكر فيه دائماً من حيث هو « أنت » toi . وليس من شك فى أن كل تفكير فى الآخر باعتباره « هو » إنما يعنى اعتبار الآخر « غائباً » ؛ لأن غيابه هو الذى يسمح لى بأن أجعل منه « موضوعاً »

أتعقله كما أتعقل سائر موضوعات التجربة — وأما التفكير في « الآخر » باعتباره « أنت » un toi فإنه باستمرار تفكير في الآخر من حيث هو « حاضر » بوجه ما من الوجوه . وعلى ذلك فإن في وسعنا أن نقول مع جبريل مارسيل : إن هناك « حضوراً » هو بمثابة « غياب » ، كما هو الحال حينما نكون بصدد شخص لا نعرفه فتتصرف بإزاءه كما لو كان « غائباً » ؛ ومن جهة أخرى هناك « غياب » هو بمثابة « حضور » ، كما هو الحال حينما نكون بإزاء شخص لا نملك أن نجعل منه مجرد « هو » حتى ولو كان غائباً (لأننا نفكر فيه دائماً باعتباره « أنت »)^(١).

ومن الملاحظ أن فكرة « الغياب » تستلزم بالضرورة أو هي تفترض حتماً فكرة « الحضور » : فأنا حينما أطلب مقابلة شخص ، ثم يقال لي إنه « غائب » اليوم ، سرعان ما افترض أنه ربما كان « حاضراً » أمس أو أول أمس ، أو ربما يكون « حاضراً » غداً أو بعد غد . بيد أن ثمة « غياباً » نشعر جميعاً بأن له طابعاً حاسماً (كأن ليس بعده حضور) وهذا هو غياب الموت (من حيث أن الميت هو الغائب الذي لن يحضر) . ومع ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن هناك نوعاً من الصلة بين الأحياء والموتى ؛ وهذه الصلة قد تكون أكثر من مجرد صلة بين « حاضر » و « غائب » . ومهما كان اعتقادنا فيما يتعلق بمشكلة الخلود ، فإن من المؤكد أن الميت الذي عرفناه وأحببناه ، يظل بالنسبة إلينا « موجوداً » un être وليس مجرد « فكرة » . ومعنى هذا أنه يظل مرتبطاً بوجودنا الشخصي ، أو هو على أقل تقدير يظل حياً في ذواتنا ، وإن استعصى علينا في كثير من الأحيان أن نحدد على وجه الدقة نوع هذه الصلة الحية التي تظل تربطنا بالرغم من كل غياب . ولعل هذا هو السر في أننا كثيراً ما نشعر شعوراً غامضاً بأن ثمة ضرباً من « التراسل » فيما بين الأحياء والموتى ، حتى أن الميت ليدور في بعض الأحيان وكأنه « حاضر » أمامنا ، أو كأنما هو شخص مقنع يدور بيننا وبينه حوار كهذا الذي يدور بين الأنا والأنت !

ولسنا نريد أن نعرض لمشكلة الموت (باعتباره غياباً) وإنما حسبنا أن نقول إننا نشعر بأن الموت لا يصبح مشكلة إلا حينما يرتبط بمشكلة الحب ،

أعني حينما نكون بصدد موت الحبيب : فالشعور الحقيقي بالموت إنما يكون حينما نفقد الشخص الذي نحبه ، إذ هنالك يكون موت الحبيب هو « موت الوحيد » (la mort de l'unique)^(١) . — ومعنى هذا أنني إذا أحطت نفسي بالخلاء من كل جانب ، فإنني أستطيع عندئذ أن أستسلم للموت كما أستسلم للنعاس . ولكن حينما تنبثق الـ « أنت » le toi فهنالك يصبح الموت مشكلة . وهنا قد نستطيع أن نتحدث مع جبريل مارسل عن « الإخلاص » la fidélité ؛ فإن الإخلاص ليتحدى كل غياب ، وبفضله نستطيع أن نتصر على ضرب من الغياب كثيراً ما نعهده بغير حق غياباً « مطلقاً » ، أعني ما نسميه بالموت^(٢) .

ولكن إذا كنا قد أنكرنا الموت باعتباره غياباً مطلقاً ، فهل معنى هذا أن لا موضع للغياب في تجربتنا الإنسانية ؟ هذا ما نريد الآن أن نعرض له بالبحث ، حتى نقف على ما للغياب من قيمة في الحياة النفسية . وهنا نلاحظ أن كل « غياب » من شأنه أن ينضاف إلى الحضور السابق عليه ، فيكون بمثابة « حضور » من نوع آخر^(٣) . وهكذا يمكننا أن نقول إن الظلام يرى ، والصمت يفسح المجال للتأمل ، بل إن الموت أنفسهم ليلاحقونا في حياتنا العادية . ومعنى هذا أن ما نسميه بالغياب ليس من قبيل الخلاء أو العدم ، بل هو يدخل في صميم تجربتنا كشيء مشعور به . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول : إذا اتفقت مع شخص على أن نلتقي في موعد ، فإنني أنتظر « حضوره » حينما يحين هذا الموعد . وهنا يكون تخلفه (أعني غيابه) بمثابة تجربة أعانيها وأشعر بها . أما إذا لم أقابل في مكان معين شخصاً لم يكن « حضوره » منتظراً ، فإن « غيابه » (أو عدم حضوره) لا يكون في هذه الحالة بمثابة « تجربة » . وإذن فإننا كثيراً ما نشعر بالغياب في تجربتنا العادية كحالة لها وجودها في صميم حياتنا النفسية . والواقع — كما يقول لسن Le Senne — إن التجربة الإنسانية كثيراً ما تشعرونا بالخلاء ، والوحدة ، والماضي ، والمستقبل ، والضائع ، والغائب ،

(١) هذه هي وجهة نظر الفيلسوف الألماني كارل يسبرز وهي تنفق مع نظرتنا ونظرة جبريل مارسل أيضاً .

G. Marcel: "Du refus à l'invocation", Gallimard, 1940, p. 198.

R. Le Senne: "Obstacle et Valeur" Aubier, 1934, p. 21.

(٢)

(٣)

والمنسى ، والخطأ ، والوهم وهذه كلها مظاهر للغياب تحتل جانباً هاماً في تجربتنا العادية — فالتجربة إذن تقوم على الحضور والغياب معاً ، وإن كان الغياب نفسه ضرباً آخر من الحضور^(١).

بيد أن من الخطأ أن نتوهم بأن التجربة هي كل شيء في شعورنا بالغياب ، بل إن من الواجب أن نلاحظ مع سارتر الدور الذي يقوم به «التصور» في هذا الصدد . ولنفترض مثلاً أنني دخلت مقهى من المقاهي للبحث عن صديق معين : ففي هذه الحالة ترين «صورة» هذا الصديق على سائر ما في هذا المقهى ، حتى ليكون كل ما عداه (أى ما عدا هذا الشخص الذي أبحث عنه) في حالة غياب . أما إذا تحققت من أن صديقي ليس موجوداً بالمقهى ، فإننى إذا ما جلست إلى مائدة أشخاص آخرين أو إذا ما تحدثت مع بعض المعارف الذين ألتقي بهم في المقهى ، فإن صديقي في هذه الحالة يصبح بمثابة «صورة» متلاشية ، أعنى في حالة «غياب» بإزاء هؤلاء الأشخاص «الحاضرين»^(٢) ومعنى هذا أن الغياب والحضور يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالتصور (وهى الملكة التى ينسب إليها سارتر القدرة على الملائشة «néantiser») . وفي هذا الصدد يرى سارتر أنني حينما أتخيل ، فإننى «ألاشي» ما أدركه حسيّاً ، وبالعكس حينما أدرك إدراكاً حسيّاً ، فإننى ألاشي تصوراتى التخيلية ، ولولا هذا لاختلط علينا «التصور» و «الإدراك الحسى» . وعلى كل حال فإننا لا نريد أن نعرض لمناقشة هذه النظرية ، وإنما حسبنا أن نقول إن مذهب سارتر الوجودى يتفق كل الاتفاق مع هذه النظرية ، من حيث أن «الوجودية» تدخل العدم والخلاء والملائشة في صميم الوجود الإنسانى . وحتى حينما يعرض الوجوديون لدراسة الشعور بالذات فإنهم لا يجعلون «الذات» حاضرة نفسها ، بل يذهبون إلى أن «العدم» هو في صميم ما نسميه عادة بالذات . وهذا ما عبرت عنه سيمون دى بوفوار بقولها : «إن من العبث أن أتأمل ذاتى فى المرآة ، أو أن أسرد على نفسى تاريخ حياتى ، فإننى لن أستطيع أن أقبض على زمام ذاتى كأنى بإزاء موضوع له كيان حقيقى ؛ وإنما كل ما أشعر به هو هذا الخلاء الذى هو فى الحقيقة

Ibid, p. 74

Jean Paul Sartre: "l'imaginaire." Gallimard, 1940

(١)

(٢)

صميم ذاتي ، من حيث أنني أشعر بأنني لست مجرداً حقاً» (١).
ولكن هل من الحق أن «الذات» هي باستمرار «غائبة» عن نفسها ،
كأنما نحن في حالة وسن دائم أو نوم كرقاد الموت ؟ أليس الأدنى إلى
المعقول أن نقول بأن كل ما نشعر به في تجربتنا العادية من خلاء
أو نقص إنما هو بمثابة «غياب» يفترض «الحضور» أو على الأصح يستلزم
«البحث» la recherche من أجل «استحضار» ما هو في حكم الغائب ؟
الواقع أن الإنسان إنما يستطيع أن يتصور «الغائب» لأنه يملك في الوقت نفسه
قدرة تؤهله لأن «يبعث». وهنا يتجلى الفارق الكبير بين الحياة الإنسانية
والحياة الحيوانية ، فإن في وسعنا أن نقول : «إن الحيوان لا يبعث» (٢)
« L'animal ne cherche pas... » بل حينما ينقصه شيء ، فإن هذا النقص
يولد فيه حالة من التوتر يظل معها حائراً خائب الأمل ، ولكنه لا يعمل من
أجل الحصول على ما ينقصه ، بل قد يندفع بفعل الحرمان إلى تطلب ما يحقق
له حالة الامتلاك . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن الحيوان لا يجعل من «الغياب»
l'absence موضوعاً إيجابياً للتصور ؛ في حين أن الإنسان يستطيع دائماً أن يتصور
ما ليس بموجود .

والحق أن الإنسان يفهم «الغياب» لأنه يملك من الحرية ما يستطيع معه
أن يهرب من «الحاضر» . وليس ثمة سجن لا يستطيع المرء أن يهرب منه بالفكر ،
فإن «الغائب» عن الحس كثيراً ما يكون «حاضراً» أمام الفكر ! ولكن الفكر
الإنساني لا يتصور الغائب مجرد أنه لا يرضى عن الحاضر ، بل لأن ما يتطلبه
الوجود الإنساني ليس من قبيل المعطيات الخارجية ، وإنما هو شيء عليه أن
يحققه بنفسه ويخلقه بفعله . ومعنى هذا أننا نتصور «الغياب» ، لأننا قادرون
على أن نعلو فوق الحقيقة الخارجية بما نحققه فعلاً — (l'homme est capable
de dépasser la réalité par la réalisation) ، وهكذا نستطيع أن نقول إن
«الخلاء» الذي نشعر به حينما نكون بصدد ما سميناه «غياباً» إنما يستلزم فعل الذات
من أجل سد هذا الفراغ . وهنا يكون الجهد الإرادي الذي تقوم به الذات ،

Simone de Beauvoir: "Pyrrhus et Cinéas.", Gallimard, 1943. (١)

G. Stern: "Une interprétation de l'Apoteriori." dans les "Recherches (٢)

Philosophiques.", vol. IV 1934-1935, p. 77-78.

عبارة عن « سعى » من أجل الكشف عن ذلك « المجهول » الذى يملأ كل وجودها بغيابه ؟ وهكذا يتجه الوجود الإنسانى بأسره نحو ذلك « المجهول » الذى هو فى حكم المعلوم ، وإن كان غيابه يشعرنا بأنه لا بد أن يوجد ، أو بالأحرى لا بد من أن نعمل على إيجاد .

ولكن ماذا عسى أن يكون هذا « المجهول » الذى تسعى الذات الإنسانية إليه ، والذى نشعر جميعاً بأن علينا أن نعمل على الدنو منه ؟ هنا نستطيع أن نهيب بنظرية لسن Le Senne فى « القيمة » la Valeur فنقول بأن الوجود الإنسانى إنما يستلهم كل وحيه مما يمكن تسميته بالقيمة ، من حيث أن « القيمة » هى التى تجتذب الذات الإنسانية ، بالرغم من سائر العوائق التى قد تعترضنا فى الطريق . فالوجود الإنسانى هو إلى حد كبير وجود من أجل المستقبل ، أعنى من أجل ذلك المجهول الذى هو فى حكم « الغيب » ، وإن كان الفراغ الكائن فى صميم وجودنا ليطالبه بشدة ، حتى يسد كل ما فى تجربتنا الحاضرة من نقص . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن ما يخلع على الوجود الإنسانى كل معناه ، إنما هو هذا السعى الذى تقوم به الذات من أجل سد كل فراغ فى التجربة ، بتزويها نحو « القيمة المطلقة » التى كثيراً ما تبدو فى حكم « الغائب » ، وإن كانت هى « الحضور » المطلق (١).

يبد أن « الذات » فى هذا السعى كله إنما تنشئ نفسها خلال ما نسميه بالقيمة المطلقة ؛ وهذا السعى لا ينتهى أبداً حتى الساعة الأخيرة من حياتنا . ومن ثم فإن الذات ليست حقيقة « معطاة » « une réalité donnée » تتمتع بحضور دائم ، بل هى حقيقة تبحث عن ذاتها ، وفى أثناء هذا البحث كثيراً ما تكون فى شبه « غيبوبة » عن نفسها . ولهذا يقول لافل فى كتابه « الشعور بالذات » : « إننى لا يمكن أن أكون حاضراً أمام ذاتى حضوراً تاماً إلا يوم الوفاة » (٢) وهكذا نستطيع أن نقول إن ما نسميه بالغياب ، إنما يدخل فى صميم حياتنا النفسية ، باعتبار أننا نتراوح دائماً بين حالتين متعاقبتين من الحضور والغياب .

وحتى هذه الظاهرة البسيطة التى نطلق عليها « شرود الذهن » إنما هى فى

R. Le Senne: "Obstacle et Valeur.", Aubier 1934, p. 204.

(١)

Louis Lavelle: "La Conscience de soi.", Grasset, 1933, p. 258.

(٢)

جوهرها بمثابة نوع من « الغياب » . ولعل هذا هو السبب في أن اللغة الإنجليزية تطلق على الشخص الذى يشرد بالذهن : *absent-minded* (أى غائب الذهن) . وليس غريباً أن تعرض لنا جميعاً هذه الحالة التى تسمى بالغياب الذهني ، فإنه من الطبيعي أن تجتذب انتباهنا أشياء أخرى غير ما يعرضه أمامنا « الحاضر » ، وما تقدمه لنا التجربة . وهذا الغياب الذهني يتمثل بوضوح حينما نكون بصدد حاضر مقفر أو تجربة ناقصة ، فنجوب بالذهن آفاقاً أوسع ، ونطوف في ربوع من الخيال قد تكون أجمل من الواقع !^(١) وحتى حينما نكون بصدد موضوع مشوق ، كأن نكون بإزاء محاضرة يهمننا أن نستمع إليها ، فإننا بين الحين والآخر قد نجد أنفسنا « غائبين » عن موضوع المحاضرة . وليس معنى هذا الغياب الذهني أن المحاضرة ليست مشوقة ، بل على العكس كثيراً ما يكون اهتمامنا بالموضوع باعثاً لنا على التأمل فيما نسمع ، وهذا التأمل هو الذى يخلق بنا في آفاق أخرى قد تتأى بنا عن المحاضرة ! ولسنا في حاجة إلى زيادة إيضاح ، فإنه مما لا شك فيه أن الشخص الذى يستمع إلى محاضرة ، لا يمكن أن يظل « حاضراً » باستمرار ، مثله كمثل المقاعد التى توجد بالقاعة ، بل هو باستمرار في حركة مطردة من الحضور إلى الغياب ومن الغياب إلى الحضور .

وأخيراً نلاحظ أن كثيراً من المشاعر الإنسانية كالرغبة والأسف والحب مثلاً ، إنما تقوى بفعل « الغياب » : أما « الرغبة » *le désir* فهي باستمرار تطلب لما لسننا نملك ، أعني ما هو « غائب » أو ما ليس بموجود بالقياس إلينا . ولسنا نريد أن نذهب إلى حد القول بأن حياتنا إنما هي عبارة عن سلسلة متلاحقة من الرغبات ، بمعنى أنها مجرد سعى وراء « الغيب »^(٢) ، وإنما نكتفي بأن نقول إن دراما الحياة الإنسانية كثيراً ما تتمثل بوضوح في هذه الحركة المستمرة من حرمان إلى امتلاك ، ومن نقص إلى امتلاء ، ومن غياب إلى حضور ، وبالعكس . . . أما « الأسف » فهو عبارة عن التحسر على الماضي ، من حيث أن الماضي قد أصبح بمثابة « غائب » لا سبيل إلى استحضاره في الواقع ولا يقوى الأسف إلا إذا كان « الحاضر » مقفراً ، والمستقبل « مظلماً » . ولكن

(١) أليس من الحق أحياناً أن الغائب أجمل من الحاضر ، والابن الغائب أعز لدى والديه من إخوته الحاضرين ؟ .

(٢) M. Bernabei: "Moi et Non-moi", article dans les "Recherches Philosophiques" vol. IV. 1934-1935. p. 56-57.

بعضاً من الناس يجدون لذة كبرى في اجتراء الماضي ، كائننا ما كان ، لأن « غيابه » يكسبه سحراً يجتذب أولئك الذين لا يستطيعون أن يقبضوا على الحاضر ! . . . أما « الحب » فإن الغياب قد يزيد من سورته ، كما هو الحال حينما يحمي غياب الحبيب فيكون مناسبة طيبة لعملية « التبلور » التي تحدث عنها ستندال ، إذ يخلع الحب على حبيبه الغائب سائر الصفات التي يتصورها في خياله الخصب ، وهكذا يضمن عليه كمالات قد يكون « حضوره » هو الكفيل بتبديده في لحظة واحدة (١) .

* * *

أما بعد فإننا لا نستطيع أن نختم هذا البحث دون أن نشير بكلمة واحدة إلى تلك الظاهرة التي لا نعدم لها نظيراً عند سائر الشعوب ألا وهي : التنبؤ بالغياب . فنحن هنا بإزاء ظاهرة جديرة بالبحث وهي تعبر عن انشغال الإنسان بالمستقبل المجهول ، واهتمامه من قديم الزمن بكل ما يخرج عن نطاق « الحاضر » . وليس بدعاً أن نجد لدى الإنسان هذه « الرغبة » الملحة في تعرف الغياب ، فإنه مما لا شك فيه أن هذه الرغبة إنما هي صدى لتلك النزعة الاستطلاعية التي ترغب في الكشف عن المجهول لسد فراغ في الحاضر ، أو لتعويض نقص في التجربة الحالية . ولكن ما نحرص هنا على تأكيده إنما هو شغف الإنسان بالغياب ، والمستقبل ، والمجهول . والواقع أن الذات الإنسانية لا تجد نفسها تماماً فيما حققته حتى الآن ، بل فيما سوف تحققه . ولئن كان هذا الذي ستحققه في حكم الغياب ، لأنه ليس بموجود بعد ، إلا أنه مع ذلك ماثل في الذات كفراغ لا بد من سده ، أو كغياب يفترض بالضرورة حضوراً . وإذن فإن ما نشعر به من « خلاء باطن » ليس في الحقيقة سوى ضرب من « الغياب » نسعى بكافة الطرق إلى القضاء عليه ، وهكذا نحاول أن نملأ تلك الهوة النفسية بما نحققه من الأفعال التي تكفل لنا الشعور بالامتلاك والحضور . ومعنى هذا أن الكلمة الأخيرة في الحياة النفسية ، لا يمكن أن تكون للغياب ، بالرغم من هذه المحاولة التي قمنا بها للوقوف على الدور الذي يقوم به الغياب في الحياة النفسية .

زكريا إبراهيم بقطر

باريس

PSYCHOLOGIE DE L'ABSENCE

Dans cet article l'auteur a pour but de nous montrer le rôle de l'absence dans l'expérience humaine. Partout, l'expérience nous fait ressentir le vide, la solitude, le passé, l'avenir, le perdu, le détruit, l'oublié, l'erreur, l'illusion, etc. (Le Senne: "Obstacle et Valeur.") Ce qui n'est pas encore, ce qui n'est plus, ce qui est "absent"; rien de tout cela n'est semblable pour nous au "néant". "Toute absence s'ajoute à l'exprésence et c'est aussi une autre présence." L'expérience joue partout avec la présence et l'absence ensemble.

L'animal ne comprend pas l'absence. En effet, comprendre l'absence suppose la perspective de la liberté humaine (capable de dépasser la réalité par le réalisation.) L'animal ne cherche pas; tout au plus peut-il, s'il lui manque quelque chose, vivre dans une déception constante de la vraie possession; il n'agit pas pour trouver ce qui lui manque, il est agité par la privation. Mais "il ne fait pas de l'absence un objet positif de la représentation". (G. Stern.)

La séparation, l'éloignement, la mort même; voilà tant d'absences pleines. Un absent à qui je pense comme un *toi* n'est pas en effet absent. Au contraire, je peux me comporter en face de quelqu'un comme s'il était absent (je le détermine comme *lui*, je l'objective, je raisonne sur lui comme sur une essence donnée) (Gabriel Marcel: "Du refus à l'invocation.")

Quant à la mort que nous appelons fallacieusement "l'absence absolue", nous pouvons dire avec Marcel que dès l'instant où le *toi* surgit, ce n'est plus le vide qui défie toute présence. Le mort que nous avons connue et aimé reste pour nous un *être*; il ne se réduit pas à une simple *idée* en nous. Par la fidélité, on triomphe de l'absence, et cet être qui est à jamais disparu, reste pour nous un interlocuteur voilà avec lequel on pourrait encore dialoguer !

Zakaria J. Boctor.